الفصل الخامس

فى أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب فى ذلك

وإنما كانت الفلاكة ألصق بهم غالبًا من غيرهم لأمور - منها أن الإمارة عنهم بمعزل والتجارة مبنية على السفسفة والمماحلة[1] والآمال التى لا يقوم دليل على وقوعها والفلاحة والصناعة يلزمهما المهانة والتلوث برذائل الحيل الدنيوية وأهل العلم لهم أنفة واستنكاف عن ذلك فيقعدون عن الاكتساب متعللين بالأمانى الكاذبة فيقعون فى الفاقة والإملاق - ومنها أنهم يحسنون ظنونهم فى الناس على مقتضى ما يتوهمونه فى أفسهم من استحقاقها لذلك ويبنون على ذلك رفيعًا ويحاولون منيعًا والناس لا سيما أهل عصرنا لا يقيمون لعلومهم ومعارفهم وزنًا فيبنون ظنونهم على شفا جرف هار وتأتى الحوادث بنيانهم من القواعد فتجتثه ويعودون بآمال خاسرة وظنون كاذبة - ومنها أنهم لاعتيادهم القواعد الكلية والخوض فى الأنظار الدقيقة يطردون معظم الأشياء كليًا حرمانًا وحصولا ويقيسون الأشياء على أشباهها على طريق قياسهم الفقهى ويلحقون بعض الوقائع ببعض على سبيل إلحاق النظير بالنظير والقياس التمثيلى. والقضايا وإن ناسبت أو تساوت من وجه فقد تختلف من وجه آخر أو من وجوه أخر تخفى على غير المهرة فى أحكام الدنيا ودقائقها أو لخصوص فى المادة أو لوجود مانع أو فوات شرط أو لكون تلك القاعدة المأخوذ منها حكم ذلك الفرع ليست كلية فى نفسها بل أكثرية وذلك الفرع من غير قسيم الأكثر وهم عن ذلك كله غافلون والقواعد العلمية التى يعرفونها

---

(١) ماحلة مماحلة ومحالا قاواه حتى يتبين أيهما أشد اهـ قاموس والغرض أن التجارة مبنية على المماكسة.

تقضى عليهم بتصحيح الأقيسة والوثوق بها فيطردون معظم الأشياء كليًا حرمانًا وحصولا تأليفًا وتنفيرًا تقريبًا وتبعيدًا إهمالاً مراعاة فيخبطون لذلك خبطا عظيما ويخطئون السياسة أصلا ورأسًا والكيس من العامة والهمج لا يعرف الكليات ولا الأقيسة والعمل بها ولا إلحاق الأشياء بنظائرها ولا قياس العكس والخلف والملازمات فينظر فى الجزئى الذى هو بصدده نظرًا خاصًا غير مشوش بما يفسده ويتفقه فيه مانعًا وعائقًا ويجسره على ذلك صحة الجزم وعدم التردد وما ينشأ من كثرة الاحتمالات من الفتور والتوانى وضعف العزيمة فتنجح مساعيهم ويصيبون فى ظنونهم غالبًا - ومنها أنهم لبعد غورهم وغوصهم يفرضون محتملات بعيدة ويجزمون بوقوعها وثوقًا منهم بظنونهم وافتنانًا بأنفسهم وما من شىء إلا ويطرقه الاحتمال المثبط عن إمضائه واستقامته فيتخلفون لذلك عن مظان الخير والتعرض لتنفيسات الدهر وغشيان أهل الجاه فيقعون فى الفلاكة والإهمال - ومنها وهو مختص بأصحاب علوم الأوائل من الحكمة والفلسفة والطبيعة والمنطق والجدل والطب وكلام الأقدمين والتصوف الممزوج بالفلسفة والمتبحرين فى التشكيكات والشب وعلى الجملة فمن تضلع من هذه العلوم وحدها ولم يكن له خدمة لما فى الكتاب والسنة من الأحكام والمعارف ولا تضلع من الفقه ولا نظر نظرًا تامًا فى كلام العلماء الكبار المتشرعين فإنه يخرج بهاء الشريعة وجلالها ومهابتها وتعظيم ما فيها من قلبه فيسترسل فى اللذات محرمة كانت أو جائزة رذيلة خسيسة كانت أو غير منفرة ويستثقل الإتيان بالمأمورات فيتركها طلبًا للراحة والدعة وأرزاق العلماء مبنية على التماس بركتهم والاستنجاح بأدعيتهم وترفيعهم عن رذيلة الاحتراف والاكتساب الجائزين فمتى لم يرفعوا أنفسهم عن الرذائل المجرمة ولم يكن لدعائهم عمل صالح يرفعه ولا على شمائلهم شواهد البركة انكف الناس عن إسعافهم بمرادهم أخذوا فى طعنهم وتنقيصهم وربما رموهم بالزندقة والإلحاد

فتستحكم الفلاكة فيهم والفلاكة كالبرص فى الجسد تنتشر فيه وتسرى وتتزايد ما لم تجد دواءً حاسمًا مانعًا له من السريان - ومنها وهو مختص بأصحاب علوم الأوائل أيضًا أنهم يرون أن لا كمال إلا التحلى بالمعارف والاطلاع على النكات والحقائق والوقوف على الأسرار والدقائق وأن الكمالات الخارجانية من المال والجاه خيالات باطلة لا كمال فيها ويمكن أخذ ذلك والاستدلال عليه بقول عز الدين الحسن بن محمد الأربلى الضرير الفيلسوف:

كمل حقيقتك التى لم تكمل ... والجسم دعه فى الحضيض الأسفل

أتكمل الفانى وتترك باقيًا ... همسلا وأنت بأمره لم تحفل

الجسم للنفس النفيسة آلة ... ما لم تحصله بها لم يحصل

يفنى وتبقى بعده فى غبطة ... محمودة أو شقوة لا تنجلى

أعطيت جسمك خادمًا فخدمته ... ونسيت عهدك فى الزمان الأول

ملكت رقك مع كمالك ناقصًا ... أتملك المفضول رق الأفضل.

وبقول أبى الفتح البستى والغزالى رحمه الله كثير اللهج به فى كتبه:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... وتطلب الربح مما فيه خسران

عليك بالنفس فاستكمل سعادتها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وبقول الفارابى محمد بن محمد بن طرخان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٦:

أخى خل حيز ذى باطل ... وكن للحقائق فى حيز

فما الدار دار مقام لنا ... وما المرء فى الأرض بالمعجز

ينافس هذا لهذا على ... أقل من الكلم الموجز

وهل نحن إلا خطوط وقعن ... على نقطة وقع مستوفز

محيط السموات أولى بنا فماذا التنافس فى المركز

وإذا كان الكمال الجارجانى متلاشيًا فى أنظارهم على ما تقرر فهم لا محالة لا يعطون له بالا وهو لعسره لا يتم مع الفكرة فى تثميره فكيف مع إهماله وعدم الاعتناء به وإلقائه وراء الظهر - ومنها أن العلوم خرجت عن كونها حرفًا وصناعة من الصناعات بعد مصيرها صناعة من قبل على ما سيجئ تحقيقه والاستدلال عليه فى الفصل السادس بعد هذا الفصل وإذا كان كذلك فكيف العمل على شريعة منسوخة والوصول بسلوك سبيل قد سد والاستضاءة بمصباح قد طفئ - ومنها أن رواج العلماء إنما هو لعلمهم كما أن رواج أرباب الحرف إنما هو لحرفهم ولكن العلم بطيء الحصول وليست كل الطباع تقبله والجزء الغالب عليه الوهب من الله لا الكسب فطائفة من العمر تنقضى فى تحصيل متنه وطائفة من العمر ثانية تنقضى فى تصوره وأخذه عن الشيوخ وطائفة ثالثة فى تحقيقه ثم بعد ذلك كله فصفة العلم ليست من الصفات المحسوسة الظاهرة كالحسن والقبح ولا مما يدخله الكمية والمقدار المحسوس ليعرف التفاضل يفه بالذراع والشبر وقياس أحد المطلوبين على الآخر ولا الدال على صفة العلم وهو البيان والنطق ظاهرًا مكشوفًا لكل أحد كالشجاعة التى يعرف بها القوى من الضعيف بالافتراس والإلقاء على الأرض وكالإجادة فى المصنوعات المرئية المشاهدة بل صفة العلم من الصفات النفسانية والكمالات الحاصلة بقوة النفس الناطقة والقوى الباطنة فهى قابلة للجحد والإنكار والمدافعة والتغطية عليها عند أهلها وقابلة أيضًا لأن يدخل فيها غي أهلها بالتلبيس والتصنع والتمويه والجاه ويعين على خفائها وجهل الناس بمكانها من صاحبها وقبولها للتصنع والتمويه أن العلم مستدع لفاهمة وحافظة وقل أن يجتمعا فى شخص وذلك لما أن القوة الحافظة من مقدم الدماغ والقوة

الفاهمة مما يلى مؤخر الدماغ فى وسطه وبقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكانين وإن شئت قلت أن البطن المؤخر من الدماغ محل الاسترجاع والتذكر والبطن المقدم محل التخيل وبقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكانين أو لأن الفهم يستدعى مزيد رطوبة فى الدماغ والحفظ يستدعى مزيد يبوسة والجمع بينهما محال كما قاله الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه المصنف مزيد يبوسة والجمع بينهما محال كما قاله الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه المصنف فى مناقب الشافعى ناقلا له عن الحكماء. وإن من العلماء من له قلم وكتابة وليس له بيان ولا جدل لأن مزاجه يتغير بالمماراة والمدافعة غضبًا أو حياء ويضيق قلبه انفعالا عن ذلك فيحصل الحبسة فى لسانه بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه أو لعدم دربته[1] ومهارته بالبحث أو لعيه وحبسته أو لأن فى العلم والكتابة ستعانة على تشييع القوة النفسانية وضبطها عن التشتت وهذا مستمد مما ذكره الحكماء فى كتبهم من أن نفوس الكهان لما ضعف استعدادها تشبثت بأمور جزئية تكون مشيعة لها ومانعة من تشتتها كالسجع ورؤية الماء وسنوح سانح. ومنهم من له بيان وجدل ولا قلم ولا كتابة له إما لفصاحته مع عدم وقوفه على حقائق العلوم وإما لفساد تراكيبه إهمالاً واحترازًا وإن كان واقفًا على حقائقها والقلم يضبط العيوب ويكون شاهدًا عليه بخلاف العبارة لا مكان المكابرة والاعتذار فيها وإمكان تغييرها عند المضايقة وإما لدربته ومهارته فى البحث وحسن انتقاله فيه وتغطيته على جهله وقلة مبالاته. وإن من العلماء من يزيد علمه على عقله فلا يحسن الغطاء على مجهولاته ولا الاعتذار عنها مع أن مجهولات الإنسان أكثر من معلوماته بل لا نسبة لمعلوماته إلى مجهولاته. ومنهم من يزيد عقله على

---

(١) الدربة بالضم هى الضراوة والاعتياد على الشىء والحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته والعى العجز عن النطق اهـ ملخصًا من القاموس.

علمه فيضع الأشياء فى حاق[1] مواضعها ويضيف إليها رونقًا وبهاء وتهويلا وتوهيمًا. وإن من العلماء من له صوت لإهماله والبكاء صغيرًا لفقر أهله أو لتسليط البكاء عليه فى المهد والمخارج رطبة لينة فيفتح العياط لهواته وتتسع مجارى صوته وتتصلب أوداجه. ومنهم من لا صوت له لعدم ذلك ومن لا صوت له مغلوب عاجز عن المباحثة حتى أن بعض الناس علمه صوته وفخره نغمة وما أحق هذا المقام بقول القائل:

فقلت لمحمد لما التقنيا تنكب[2] لا يقطرك الزحام

وإن من العلماء من له علم بلا جاه ولا وجاهة فلا يمكنه المقاومة ويتلعثم لسانه ويتغير للإجلال ويدافعه الوهم ويقول فلا يلتفت إليه أو يرد عليه ردًا جاهيًا تقبله العامة ولله در القائل:

إذا التقى الخيل فى معسكرها فكيف حال البعوض فى الوسط

والقائل:

حياة بلا مال حياة ذميمة وعلم بلا جاه كلام مضيع

ومنهم من له جاه وحاله فى ذلك ظاهر لايحتاج إلى الكلام عليه. وإذا تقرر لك ذلك كله علمت أن العلم أقبل شيء للخفاء والجحد والتلبيس والتصنع وكيف الرواج بحرفة مجحودة أو خفية أو يشارك فيها بالتلبيس والتمويه - ومنها أن ما فى أيدى الناس إنما هو ثمرة أموالهم وتكسبانهم بأعمالهم حتى لو فرضنا شخصًا خاليًا من المال والتكسب لم يكن إلا شحاذًا

(١) فى القاموس وحاق الجوع (أى بتشديد القاف) صادقه ورجل حاق الرجل وحاق الشجاع وحاقتهما كامل فيها اهـ.

(٢) أى اعدل عن طريقى لئا تصرعك مزاحمتى اهـ.

مكديًا وعلى قدر احتياج الناس إلى نوع ذلك المال ونوع ذلك التكسب يكون نفاقه بينهم وبقدر[1] نفاقه تعظم ثروة صاحبه وغناه فلذلك لا تعظم ثروة أصحاب منصب القضاء والفتوى والتدريس غالبًا وذلك لعدم احتياج جمهور الناس إلى ما بأيديهم احتياجًا لازمًا لا مندوحة عنه لما أن الأمور المفتقرة إلى القضاء تنفصل بغير قضاء تارة لرجوع المبطل عن عناده لوازع دين أو عار أو خوف مترقب أو نحوها وتنفصل بالسياسة وبوجوه الناس تارة أخرى ولما أن العلوم مباينة لطبائع البعض ومهجورة عند البعض ومستثقلة على البعض.

(١) النفاق بالفتح رواج الشيء وبالكسر المداهنة والخداع ومراد المؤلف الأول كما هو واضح اهـ.

obeikandl.com